حياة في زرة

دخل على مأمور قسم ك . في القاهرة فتىً لاحل القوام مكفهرّ الوجه في نحو الثامنة عشرة من عمره وانقضّ على يديه يقبلهما وهو يبكي ويقول : بعرضك يا سعادة المأمور احمني حياتي في خطر .

ومن حسن حظه كان مأمور ذلك القسم ذا ثقافة عالية، نبيل النفس، رضي الخلق، طيب القلب . فأقعده على كرسي الى جنبه وقال : هدئ روعك يا بنيّ . لا تخف ، ما هو اسمك

— اسمي بديع نصري

— فتذكر المأمور هنيهة وقال : هدئ روعك . ما هي قصتك ؟

فقال الفتى وهو لا يزال « يتشعر » من الخوف : الى الآن لم أفهم ما هي قصتي . قضيت أكثر من أسبوع في حجرة تحت الأرض لا شباك لها ولا نافذة سوى باب موصد دائماً ، إلاّ حين يقدّم لي طعام تعافهُ النفس مرة في اليوم . وكنت دائماً تحت التهديد والوعيد وأنا لا أدري سبباً سوى أن حياتي مرهونة لقضاء مجهول .

فقال المأمور : حقّاً ان قصتك غير مفهومة وربما كنت أفهمها أكثر منك . فأرجو أن تبسط لي كيف ادخلت الى ذلك السجن . أين كنت قبله . ثمّ كيف خرجت منه .

— كنت ياسيدي أشتغل كاتباً بسيطاً في مكتب شركة ك ... وخرجت مساء كعادتي مع سائر المستخدمين، وبينهم فتاة أرمنية تدعى أرميناك تقطن في ناحية ش . التي أقطن فيها . وبطبيعة الحال كنا نترافق أكثر الأيام . وفي المساء الأخير ماشيتها الى مقربة من منزلها . وكان الظلام قد سدل سجوفه . ولما ودعتها وعدت أدراجي استوقفني شخصان واقفان عند سيارة . وحملني أحدهما ثم يحمل عصفوراً ووضعني في السيارة ، والآخر كمّ فمي بكمامة . ولم أستطع أن أستغيث لأني كنت تحت الأنفاس بين جبارين . وما لبثت أن غبت عن الرشد . وما تحوت إلاّ وأنا في ذلك السجن المظلم هلع الفؤاد . ناديت فلا حياة لمن أنادي . استغثت فلا مغيث . بكيت فلا ترق لي الجدران القذرة . فهمت أني مدفون حيّاً . ولكن لماذا ؟ لم أسيء لأحد قط ؟ —

بعد حين طويل انفتح الباب : ودخل عليّ جبار بمصباح كهربائي ضئيل النور، وبيده

شيء من الطعام الجاف، وزاده من الشراب ... فقال بصوت فظ جداً: خذ هذا واشرب فتراميت على قدميه وجعلت أبوسه ... وأخبره بما مر من العذاب الذي أذاقته حتى حبست هكذا. فانتهرني قائلاً: اخرس ... كل واشرب والا أتركك بلا طعام.

فأكلت قليلاً اذ لم يبق لي الخوف شهوة للطعام.

وقد تكرر هذا الامر نحو خمس مرات في خمسة أيام إن صدق تخميني وكنت كل مرة أتوسل لذلك الطاغية أن يرحمني ويخبرني ما هو ذنبي. وما هو ذنبي. فلا أجد إلا تهديداً ووعيداً بحيث لم يبق عندي شك ان المطلوب هو سل روحي من جسدي كرهاً. ولكن لماذا: لم أدر

فقال المأمور: وأخيراً كيف خرجت؟

— في المرة السادسة طلب مني ذلك الطاغية أن أوقع على صك (حوالة بنك) بخمسين ألف جنيه. ففي إبان يأسي وبؤسي ضحكت وقلت له: إنت غلطان يا سيدي. لست أنا الذي تقصد.

فقال اخرس. بل إياك أقصد. اذا كنت لا توقع على الصك فحياتك لا تسوى لك.

قلت: أوقع يا سيدي. ولكن ليس لي في بنك مصر مليماً. ولا أملك سوى فقير، ومعاشي ستة جنيهات في الشهر، فمن يدفع لك الصك بخمسين ألف جنيه.

فنفر مني قائلاً: — إذاً، مت كمداً هنا

وخرج موصداً الباب دوني بالرغم من استغاثتي به أن يتمهل الى أن نتفاهم.

بعد حين عاد وقال: ألا توقع على الصك

قلت — أوقع بكل امتنان.

قال: والدفع.

قلت — حبذا أن يكون عندي المبلغ لأشتري به حياتي عن طيب خاطر

قال: هب أن المبلغ تيسر لك بعد حين أفلا تدفع الصك.

— أدفعه بكل امتنان. ولكن من أين يتيسر لي مبلغ جسيم كهذا، وأنا لم انقطعت عن الأكل والشرب مدة ٧٠ سنة وجمعت ماهيتي في هذه المدة لما تم لك المبلغ

فانتهرني وقال: — يظهر أنك لا تنوي الدفع فالأفضل أن تموت كمداً هنا

وولى ظهره فاستمهلته قائلاً: أنوي من كل قلبي أن أدفع يا سيدي حالما يتيسر المبلغ.

ففكر برهة ثم قال: — يحتمل أني لا أحصل على قيمة الصك، فالأفضل أن تتعهد كتابة أن تعيني سكرتيرك الخاص بماهية ستة جنيهات في الشهر.

فقلت في نفسي كما قال الشاعر .

الصدق أن ألقاك تحت العطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

فلا جاور هذا المجنون في فكره . وقلت له : أعتقد أن أفعل طالما أصير رئيس البنك

— صرت أو لم تصر يجب أن تشهد هذا العهد على الورق .

سلمني ورقاً وقلماً وأملى عليّ نص العهد . فكتبته وأمضيته .

ثم كمّ فمي وعصب عينيّ وأخرجني ووضعني في سيارة درجت بي نحو ربع ساعة وأنا لا أدري أين سيدهورني ذلك الشرير ، الى أن صرن الله ووقف بالسيارة . وحلّ العصابة عن عيني — وقال : — هذه طريقك سر فيها . وفي أحد الأيام سأريك ذلك العهد لكي تعلم أني أنا سكرتيرك . فان بدت منك أية بادرة تدل على سوء قصد منك فثق أن حياتك بخطر لا يقيك أحد منه .

وأطلق لسيارته العنان ، فمشيت قليلاً حتى أدركت أني أصبحت في طريقي الى منزلي . دخلت البيت وأنا لا أصدق اني فيه . علمت من حركة الشوارع أن الوقت في أول السهرة طولت أن أطمئن في سريري فازددت اضطراباً وقلقاً لأني كنت أتخيل ذلك الجبار ورفيقه يترصدانني ، وحياتي تحت رحمتهما . لذلك جئت استغيث بك يا مولاي راجياً أن تسمح لي بالمبيت هنا في القسم كل ليلة لقاء خدمة أقوم بها بعد الانتهاء من عملي في الشركة .

ففحك المأمور وقال : لا تخف . ولا تبت الاّ في بيتك مطمئناً . أتأسف أن غريمك نجوا من يدي باطلاق سراحك ، ولكن ...

عند ذلك دخل الملاحظ وقال : يا حضرة البك « كبسنا » الفلاّ كبساً محكماً وفتشناها تفتيشاً دقيقاً فما عثرنا على الفتى ولا على أثر لسجين هناك .

فقال المأمور : ها هو الفتى . والظاهر أن الفرسان عموا « بالكبسة » فأطلقوا سراحه . من كان الخائن من رجالك ؟

فقال الملاحظ يستحيل يا حضرة البك أن يكون فيهم خائن لأنه لم يعرف أحد منهم بهذه الحفلة السرية غيري . ما عرف رجالي أين هم سيرون الى أن أحاطوا بالفلاّ

فقال المأمور : استدع المبلّغ لأتحقق منه أموراً .

ثم التفت المأمور الى الفتى وقال : هل تعرف فتىً يدعى جاك منصور .

— هو زميلي في مكتب الشركة

— هو الذي أبلغنا أنك مفقود وهو الذي وجه أنظارنا الى ذلك المنزل المنعزل على

ظن أن تكون مختلقاً فيها . يجب أن تبحث أموراً منه ، فانتظر هنا الى أن يأتي .

..

بعد برهة دخل جاك المنزل . وما رفست العين على العين ، وحيا الرفيقان كلٌّ منهما بالآخر ، وهنأ الثاني الأول على السلامة .

ثم قال المأمور لجاك : لقد بلغني أن صديقك بديع نصري مختفٍ في الفلا التي دللتنا عليها ، وزعمت أن السبب هو مفارقته مع الفتاة أرمينا ، لأن شخصاً آخر يحبها ، فغاد من بديع ....

فقاطع جاك المأمور قائلاً . كذا ظننت ولكني لم أؤكد هذا الظن . فقد أكون مخطئاً كل الخطأ . أليس هناك وجدتمو ؟

فقال المأمور : — لا . ولا نؤكد انه كان هناك . لأن معتقليه أخرجوه من تلقاء أنفسهم قبل أن نكبس الفلا . ولم ندرك لأحد شيئاً من هذا القبيل فلعلهم خبر الكبس

— كلا يا سيدي بقيت كاتبا السر كما أمرتني حتى الساعة .

— حسناً . وما هي الأدلة التي حملتك على الظن بأن بديعاً كان معتقلاً هناك لذلك السبب

— لاني كنت أعلم أن بديعاً يحب الفتاة أرمينا أكثر الاحساء الى مقربة من منزلها وكنت أرى أرمينا أحياناً تحيي شاباً أرمنياً ظننته قريبها . واستنتجت أنها حبيبته . ولما فقد بديع ، ولم نعد نعرف أين هو ، خطر لي أن ذلك الشاب سبب اختفائه . فترصدته مرتين الى أن رأيته يدخل الى تلك الفلا ، ورأيت الفلا بدوناً صيفاً . فكنت أتسمع في السهرة فيخيل لي أحياناً أني أسمع أنيناً في البدرون فرجحت هذا الظن وأبلغتكم .

ففكر المأمور هنيهة ثم قال لكاتبه بنفسه : ان تعليل جاك لا يطابق رواية بديع ولا نستطيع أن نتحقق من رواية بديع المكان الذي كان معتقلاً فيه . هل كان بدرون تلك الفلا أو غيره . سنرى . أفكرك يا سيد جاك .

فخرج جاك وبقي بديع حسب اشارة المأمور . فقال هذا له : إن روايتك عن عملك الحسين ألف جنيه وعن وظيفة السكرتير تخبر بأمر بديع . هل لك أبوان في قيد الحياة .

— توفيا الى رحمة الله . أبي منذ عشر سنين . وأمي منذ ثلاث .

— ماذا كان اسمهما .

كان اسم أبي فهمي نصري واسم أمي أندرومك .

— أندرومك ؟

— نعم. هي بنت أبوين أحدهما يوناني والآخرى رومانية وإنما هي ولدت في مصر وتربت فيها.

— ماذا كان يشتغل أبوك.

— كان يشتغل بتجارة القطن شريكاً للمسيو فرنندو الروماني. وقد أثرى. ثم انفصل أبي عن شريكه وتمادى في المضاربات بالبورصة حتى خسر كل شيء ومات من الغم. فربتني أمي بتدبيرها العجيب، رحمة الله عليها.

وهل بقيت لكم علاقة مع المسيو فرنند.

— الصداقة القديمة فقط. وقد احتاجت أمي مرة عشرين جنيهاً لنفقاتي المدرسية في المدة الأخيرة فاقترضتها منه. وماتت وهي توصيني أن أوفيه الدين. وأنا أذهب اليه في كل عيد كبير وأعايده وأرجو منه أن يمهلني بالدين. فيطيب خاطري ويقول: « لا تهتم به يا بني. متى تيسر لك تدفعه. فأعود شاكراً ممتناً.

— كم تقدر ثروة صديقكم الروماني.

أظن له من البيوت نحو مئة الف جنيه، ومن الأطيان ما يقارب هذا. وأما من النقد، فلا أدري.

— أكتب لي عنوانه على هذه الورقة. وامض الى منزلك مطمئناً. ولا تخف فاني معين خبيراً سريعاً يراقبك ويحرسك.

***

عاد بديع الى منزله فوجد جاك صديقه ينتظره في الطريق. ودخلا معاً. وبديع يروي ما جرى له في سجنه. فقال جاك أخيراً. لا ريب أن ارشادي البوليس لم يكن خطأ. فأنت كنت سجيناً هناك. وقرنت هذا الارشاد بذلك التعليل لكي لا يتردد المأمور في محاصرة المنزل.

فقال بديع: إذاً، كان عندك دليل أكثر تأكداً من ذاك. فما هو.

— دعنا من هذا. لا يهمك إلا أنك نجوت من عصابة الأشرار والحمد لله.

ولكني أود أن أعلم سر الصك ووظيفة السكرتير.

— أظن لا سر لذلك الا التمويه.

— ولكن لماذا أطلق الأشرار سراحي وهم لم يحصلوا مني فدية. يجب أن تقول لي من أنبأك اني معتقل هناك لاني أود أن أقطع ذيول هذه المكيدة الطائلة

— اطمئن يا بديع لاني أقسمت أن أكتم سرك .

فتنهد بديع وقال : أترى أن يركن جاك لوعدك ، وان محافظتك على قسمك تسوغ بقائي مبدداً بخطر داهم ؟ أترى أن استئصال جرثومة ذلك الخطر تحلك من قسمك ؟ أولا ترى أن الخدمة الجليلة التي تقدمها لصديقك تكفر عن حنثك بيمينك ؟

وما زال بديع يلحف بالرجاء حتى باح له جاك : — ان ارمينالك هي التي أمرتني أن أكتم ذكرها بتاتاً لئلا تتعرض هي للخطر الوبيل .

فقال بديع شكراً لك يا أوسبناك ، والله لولاها ... ولكن لماذا أطلق ذلك الجبار الشرير سراحي بلا انتقام ؟ حتى ولا فدية ؟ أظنه هو الشخص الذي يحب ارمينالك وفاز مني

فقاطعه جاك — لعله هو وارمينالك تحبك .

— وأنا أحبها . ولكن هذا الحب جعلها كلينا تحت خطر ذلك الوغد الشرير . اني براء من حبها اذا كنت لا أستطيع أن أدرأ خطر ذلك الطاغية . واما ما رأيك بمسألة الصك الذي حاول ذلك الشرير أن يأخذ توقيعي عليه ، ثم أبدله بتعهدي أن يكون سكرتيري بمثابة مئة جنيه في الشهر . فاذا يعني ذلك الشرير بتعهد كهذا لا قيمة له ، ثم يتهددني اذا لم أنفذه حين أصبح قادراً على تنفيذه ؟ ألا يكون أن الرجل قد اعتقلني خطأ .

فقال جاك أظنه رام بهذا التعهد التمويه لكي يوهمك بالمبرر لاطلاق سراحك . لانه يلوح لي أنه شعر ان قوة البوليس أزمعت أن تحاصره .

***

في اليوم التالي اجتمع بديع بأرمينالك وقال لها — ألف شكر لسعيك السري بانقاذي من براثن ذلك النمر .

فارتعدت أرمينالك وقالت : ويحي ! هل أنبأك جاك الخائن بسر الجبر . ويلي لقد عرضني للخطر .

لا توبخي ، ولا تلومي ، ولا تخافي لم يكن جاك خائناً حين أبلغني بما فعلته لأجلي ، لانه يجب أن يبلغني لكي أعلم كيف أتدبر لاتقي الخطر المقبل . ما زلت تحت التهديد والوعيد من ناحية ذلك الجبار الشرير . ولا تخافي ان افشاءه مصدر السر منك يعرضك لأقل خطر لأني لن أبوح بسرك . فأود الآن أن أعلم امرين : الأول : هل ذلك الوغد فار مني للعلاقة الوداية التي بيننا . فان كانت الغيرة هي سبب هذا الخطر علي ، فأرجو أن تعلمي

يا عزيزتي أني لست ممن يزرعون الحب بين أشواك المكايد والدسائس . فاذا كنت لا تستطيعين أن تقضي ذلك الرجيم فما إقصاء أبديٌّ فأنا أقضي نفسي بنفسي .

فقهقهت أرميناك وقالت : ان ذاك الرجيم زوج وأب فلا مطمع له بي . فما دمر السؤال الثاني :

— كيف عرفت أني هناك مُستقَلٌ ؟

— ان لذاك الوغد صلة بعمي، وشعرت أن عمي يستشير أبي بأمور سرية وأبي يحذره وينذره بشدة وحدة . فلما فُقِدتْ أنت ولم يعلم أحد أين اختفيت رأيت أبي يغضب غضباً شديداً على عمي . فأدركت أنك أنت موضوع المكيدة وان صاحب المكيدة ذاك الوغد مستعيناً بعمي . وتجسست حول المنزل المنفرد الذي جعل مستودع جرائمه ،فرجحت أنك معتقل هناك .

— ولكن لماذا اعتقلني ذاك الشرير؟

— هذا ما لم أدره . وأظن أن ذاك الشرير ينفذ خطة آخرين بأجر كبير . فطمعه ليس فيك ، بل في من حرّضه عليك . فهل تعرف لك خصوماً أو أعداء ألداء .

— ويحي ولماذا يكون لي خصوم وأعداء،وأنا لم أقف في سبيل أحد، ولا قطعت الرزق عن أحد ، وليس عندي اموال يطمع فيها الطامعون .

— مهما يكن من الأمر فاني أن تبوح باسمي في تحقيقات هذه المكيدة .

— معاذ الله ولكن لماذا أطلق ذلك الوغد سراحي وهو لم ينل مني سوى قصاصة ورق يعرف جيداً أن لا قيمة لها .

— اضطر أن يفعل قبل أن يقع في قبضة البوليس متلبساً بالجريمة — لأني أنا جعلت أبي يوهم عمي ان البوليس عرف بالمكيدة ، فأسرع عمي وأنذره ، وأردت بذلك أن أنقذ عمي لئلا يهلك معه .

— ألف شكر لك يا ارميناك .

***

بعد يومين دعا المأمور إليه بديعاً وقال له : أظن أن مفتاح سر المكيدة مع صديق

والديك المسيو فرنندو الروماني ، ولكنه مريض حتى الموت ، فلم يمكن البحث معه . فلعلك تعوده . ولعلك أن تفهم منه أموراً وتلقني

مضى بديع الى المسيو فرنندو فوجده في حالة مرضية خطرة كما تهم من الطبيب . ولكن فرنندو بالرغم من سوء حاله طلب أن يدخل بديع اليه لما علم بقدومه . فدخل بديع وركع عند سريره وقبل يديه . ودعا له بالشفاء .

فقال فرنندو : اني أحبك يا ولدي حبًّا جمًّا ، والله أعلم بأسرار هذا الحب . لذلك كتبت نصف ثروتي لك والنصف الآخر للجمعيات الخيرية .

فصاح بديع : بعرضك يا سيدي . فهمت الآن سر ادعتقال الاشرار لي ، وأخذهم العهود مني . يريدك مزق الوصية لأن عائلتي ضعيف جدًّا يئوء تحت حمل الغنى العظيم .

فقال فرنندو : ماذا تقول ؟

فروى له بديع حكاية اعتقاله باختصار . ثم قال : لك يا سيدي ابن أخ هو أولى مني بفضلك .

فارتعد فرنندو وقال : لا تذكر اسم ذلك اللعين ، فانه في فراش الموت بسبب مكيدته ، حاول اغتيالي لكي يقبض مالي عاجلاً . فأنا حارمه منه لا محالة . وهو بين يدي النيابة الآن وسيناك عقابه عاجلاً . لا تحسب حساب مكايده . فقد أوعزت الى دائرة البوليس أن تحميك من شروره وعينت بالوصية أجر البوليس لقاء هذه الحماية . فاطمئن .

وبقي بديع يتوامي فرنندو في ساعة احتضاره الى أن أسلم الروح . وعلى الأثر سلمه المحامي الوصية لتنفيذها .

***

في اليوم التالي قابل بديع أرميناك وأنبأها أنه يود عقد زواجهما عاجلاً . ورجا من أبيها أن يساوم ذلك الوغد على مكافأة للكف عن أذاه .

فقال له أبو أرميناك : لا تخف منه فقد وقع في يد القضاء في عدة تهم ولا أظنه يخرج من السجن قبل أن تخرج روحه من بدنه .

هكذا يكون مصير الأشرار .

وكذلك مصير الأبرار .